

## في رثاء الرفيق سهيل يموت وذكريات معه ومع الرفيقين إدمون عون ونخلة مطران

غاب سهيل يموت عن عمرٍ ناهز السادسة والسبعين. ففقد الشيوعيون، والكثيرون من الوطنيين والديمقراطيين، بغيابه، مناضلاً عنيداً من القدماء الكثيري العطاء. فسهيل هو شيوعي قديم. أمضى فترة دراسته الجامعية في فرنسا حيث تخرّج مهندساً من إحدى جامعاتها. بقي فيها فترة طويلة. إذ إنّ الحرب داهمته قبل أن يُكمل دراسته الجامعية. ففضى فترة الحرب هناك، ثم أكمل الدراسة، وعاد إلى لبنان في أواخر الأربعينات. ولكّنه عاد ليمارس النشاط السياسي، بالدرجة الأولى. إذ هو تعلّم في فرنسا، إلى جانب الهندسة، أصول الفلسفة الماركسية، وفنون العمل السياسي والحزبي. وبدأ فور عودته، مع نفر من أصدقائه المثقفين اللبنانيين الماركسيين واليساريين، الذين جاؤوا إلى الماركسية من أصول حزبية واجتماعية مختلفة، بما في ذلك من داخل حزب الكتائب، بدأ سهيل مع رفاقه بتنظيم حلقات ماركسية، وحركات سياسية، سرعان ما التقى بأعضاء في الحزب الشيوعي، الأمر الذي أدّى به إلى أن ينتقل إلى صفوف الحزب مع عدد من هؤلاء المثقفين، ثم إلى مراكز قيادية فيه، في وقتٍ لاحق.

لقد تميّز سهيل يموت، منذ مطالع شبابه، بحيوية استثنائية، جعلته، في كثير من الحالات، يدخل في نقاشات حادة، وفي اختلافات، ثم في صراعات مع الحزب. كما جعلته يخرج من صفوف الحزب، أحياناً كثيرة، دون أن يدخل في عداًٍ معه. كما جعلته ينتمي إلى حركات أخرى، يسارية، أو شبه يسارية، ويقيم، من خلالها، علاقات متعددة مع الحزب. فقد كان يرى نفسه ذا مهمة تاريخية، وكان يريد لهذه المهمة أن تتحقق بكل الأشكال الممكنة، ويتجاوز سريع للعقبات، وللحدود الزمنية.

ولذلك اهتمّ، في الأساس، بالعمل الفكري والسياسي والإعلامي. ولكّنه لم يُتقن العمل التنظيمي، برغم جهوده الكبيرة في هذا المجال، وأول ما بادر إليه هو إصدار كتاب عن "النقطة الرابعة"، شكّل بصدوره حدثاً سياسياً وفكرياً مهماً. إذ هو فضح، منذ وقت مبكر، الدور الأميركي لوضع اليد على لبنان. ثم إنّه بادر، في نفس الفترة الزمنية، إلى تأمين منبر إعلامي للحزب، بوسائله الخاصة هو جريدة "الأخبار" الأسبوعية التي كان يملك امتيازها. وظلّ اسمه مرتبطاً بهذا المنبر إلى أن طلب الحزب منه تسليمه لسواه، فلم يتردد، حتى وهو خارج الأطر التنظيمية للحزب. وأثبت، بذلك، كما أثبت في كل المناسبات، أيّاً كان الموقع الذي وُجد فيه، أمانته للقضية التي من أجلها كان

يناضل، وكان يهّب حياته. وأثبت مصداقيته، وأخلاقاً كان يعتبر أنّها أساسية في صفات الشيوعي، بفقدانها يفقد هذا الشيوعي موقعه في الحزب، ويفقد علاقته الحقيقية مع الفكرة الشيوعية، ذاتها.

كل الذين عرفوا سهيل، قبل الحرب وخلالها، وعلى امتداد حياته السياسية في لبنان، في الحزب وخارجه، وحتى في مواقع بعيدة عنه، كانوا يتفقون معه، ويختلفون. وكثيراً ما كانوا يختلفون، ولكن دائماً، من موقع الاحترام والتقدير لمناضل لا يهدأ، ولا يتعب، مناضل يحمل مشعل ثورة لم يكن يعرف، دائماً، كيف، وبأي اتجاه، ينبغي حمله والسير به. إذ كثيراً ما أخطأ. وكثيراً ما جرى الخطأ في التعامل معه. ولكنّه لم يتخلّ عن الثورة، ولا عن الحلم بتحقيقها، ولا عن اليقين بانتصارها. إلى أن حصلت تلك الانهيارات، وحتى قبل أن تبدأ، أي عندما كانت بعض ملامحها تطل، من خلال بعض الأحداث والمواقف. حينئذٍ أحسّ بالانكسار. وأحسّ بالتعب. وسرعان ما جاءت أحداث أليمة، من حوله، وفي داخل بيته، وقريباً منه، وبعيداً عنه، فجعلت هذا الانكسار يقوى عنده على الأمل، والحلم، واليقين. فقرر القعود في البيت، والصمت عن الكلام، والانتظار الكئيب.

وهكذا تلاشى هذا الإنسان القوي، هذا الجبار في معاندة الصعوبات، وفي مقاومتها، والعمل للتغلب عليها. تلاشى شيئاً فشيئاً، إلى أن انطفأ، مخلّفاً وراءه سيرة لبطل حقيقي، مارس دوره الخاص في كل الأزمنة. وهذا الدور هو الذي سيظل يحمل اسمه، بعد غيابه، مدى الدهر، ككل المناضلين من أجل قضية حقيقية عادلة.

غاب سهيل يموت. ولكن ذكره سيبقى في الوجدان، بكل هذه السيرة، التي رافق بها تلك المسيرة المجيدة لحزبه ولفكره، ما يقرب من خمسة عقود.

هذه الكلمات، التي أحببت أن أضيء من خلالها على سيرة هذا المناضل، تتطلب مني أن أضيف إليها كلمات تتعلق برفيقين آخرين كانا شريكين له في الانتماء إلى الحزب الشيوعي في مطالع خمسينات القرن الماضي. وهذان الرفيقان هما المحاميان إدمون عون ونخلة مطران. ولكل من هذين الرفيقتين سماته الخاصة التي كانت تبرز بوضوح في المراحل اللاحقة من انتمائهما إلى الحزب، ثم لدى خروجهما منه في الفترة التي أعقبت انفصال الحزب اللبناني عن الحزب السوري في عام ١٩٦٤.

لن أدخل هنا في التفاصيل المتصلة في المرحلتين الآتيتي الذكر. لكنني مع ذلك أود أن أشير باختصار إلى نقطتين في سيرة كل من الرفيقتين إدمون ونخلة. تتعلق النقطة الأولى بإدمون عون الذي لَبّي طلبي في العودة إلى الحزب بعد نقاشات أجريتها معه بعد عودتي من مجلس السلم العالمي وانتخابي عضواً في المكتب السياسي للحزب بعد الانفصال. قلت له يوماً أن الصداقة

التي ربطتنا خلال الأعوام السابقة هي التي فرضت عليّ أن أطلب منه ومن الرفيق نخلة والرفيق سهيل العودة إلى الحزب. فافتتحت. ثم سلمته مهمة ترجمة النشرة التي كان يصدرها الحزب كوسيلة إعلامية داخلية تتضمن وثائق الحزب وبعض مواقفه. إذ كنا قد قررنا في ذلك الحين أن نترجم هذه النشرة إلى الفرنسية لإرسالها إلى الأحزاب الشيوعية في العالم وإلى أحزاب أخرى تربطها بالحزب علاقات سياسية. وقد قام إدمون بالمهمة بأمانة وصدق وعلى أفضل وجه.

النقطة الثانية تتعلق بالرفيق نخلة الذي كان مع إدمون في مركز واحد للمحاماة يتابعان فيه، إلى جانب مهماتهما كمحامين، جميع المهمات المتصلة بالقضايا القانونية الخاصة بالحزب. وكانت علاقتي بنخلة بنفس مستوى علاقتي بإدمون. لكن نخلة لم يستجب لطلبي بالعودة للعمل في الحزب رغم أنني اقترحت عليه أن يتسلم مسؤولية العلاقات السياسية أو حتى العلاقات الخارجية. إذ كان يعتبر أن إخراجهم من الحزب مع رفاق آخرين في ذلك التاريخ كان يشكل إساءة إليه لم يستطع أن ينساها ويسامح الحزب المسؤول عنها. ورغم أنه رفض طلبي بالعودة إلى الحزب فقد ظلت على علاقة معه ضد إرادته وغضباً عنه. وعندما غادر الحياة ذهبت إلى بعلبك مع عدد من الرفاق للمشاركة في تشييعه.

لقد أردت في هذه الكلمات القليلة أن أشير إلى السمات التي التصقت بكل من هذين الرفيقتين ومعهما ما عبّرت عنه في كلمات سابقة عن الرفيق سهيل يموت.